الباب الثالث

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ ﴾

[الأحزاب : ٢٣]

من شُبَّان القرآن

في بيتٍ من بيوتِ سُراة بني عبد الدار وُلد مُصْعَبُ بن عُمَير لأبوين شريفين ، أما أبوه فعُمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، كان في الذِّروة من قومه جاهاً ومالاً .

وأمّا أُمُّه فخُناس بنت مالك ، كانت مليئةً كثيرة المال ، ترعى أولادها أحسنَ رعاية ، وتكسوهم أحسنَ ما يكون من الثياب وأرقَّه ، وكان لمصعب عندها المكانة الممتازة فقد كان أعطر أهل مكة وأجملَهم يميسُ تيهاً ودلالاً ، يمرُّ بين أحياء مكة فترمقه عيون فتياتها ، ويسترعي منظرُه ساكنيها ، ويُقبل مصعب على تلك الحياة الناعمة المترفة فيأخذ منها بأكبر نصيب ، ويرى في مفاتنها الغاية القصوى للحياة ، ويمهد له شرف أبيه وثروة أمه ما يريد من متاع ، فلا يُرى إلا ضاحكاً ، مُقبلاً على الدنيا كأشدِّ ما يكون الإقبالُ عليها .

تمضي الليالي مُسرعةً فيما هي فيه من مفاتن على مُصعب ، فلا يرى فيها ألماً ولا ضَنْكاً ولا نَصَباً ، وتدور الأيام بمصعب فترى منه فتيات الحي إعراضاً وابتعاداً ، وتلمح أُمُّه على وجهه آثار تفكير عميق ووَجْدٍ لم يلم به من قبل ، وعزمٍ صارمٍ يبدو على وجهه الجميل ، وتحاول أمُّه أن تصل إلى ما يدور في نفس فتاها فلا تتمكن ، ومصعبٌ يزيد في الإعراض عن الحياة إمعاناً وكأن أيّامَه السوالف حلمٌ رهيب ، أو أشباحٌ ماضية لم يعد بينه وبينها صلة من الصلات ، وتُروِّع أمَّه هذه الحالة الجديدة فتتسائل وتلحُّ في السؤال ، ومصعب يزداد إمعاناً في السكون ولكن ما لَبِثَتْ أُمُّه زمناً طويلاً حتى جاءها عثمان بن طلحة النهدي يخبرها أن مصعباً قد أسلم ، فلقد بصر به عثمان يصلي . . . !

أتى دار الأرقم البيت الخالد ساكنٌ جديد ، وهو مصعب بن عمير ، دخل الفتى الفاتن العطر إلى محمد رسول الله ﷺ ليسمعَ كرمَه ويتأمَّل حقيقة الدعوة الجديدة .

لم يثن كلُّ هذا مصعب بن عمير ، لقد سمع وفكَّر وآمن وأسلم ، ولقد هاجر مصعب بن عمير هجرتَه الأولى عن متاع الحياة الدنيا ومفاتنها إلى الله ورسوله ، وكانت تلك الهجرة الأولى هي سِرُّ تفكيره العميق .

علم أهلُه بإسلامه ، فأخذوا يُذيقونه ألواناً من التضييق والعذاب ، ثم حبَسُوهُ ولكن لم يُلْهِ كلُّ هذا مصعباً عن دينه ، آمنت النفسُ الكبيرةُ والنفسُ تتسامى على كل ما يقف في وجهها من عقبات ، فلا تلقاها إلا صغائر .

ودعا محمد ﷺ أصحابَه إلى الهجرة إلى أرض النجاشي وقد هاجر مصعب فيمن هاجر مفارقاً أهله وعشيرته ، غير واضعٍ نُصْبَ عَينيه إلا مرضاة الله ورسوله . . .

وكانت تلك هجرته الثانية . . .

وأصاب مصعباً هناك من جَدْب العيش ما أصابه حتى رجع مُتغيِّر الحال إلى مكة حين رجعوا إليها ، وعاش مصعب في فقرٍ مُدْقِعٍ حتى إنه ليُقبل ذات يوم والنَّبي ﷺ جالسٌ بين أصحابه ، وعليه ملابس ممزقة ؟ فلما رآه أصحاب النَّبي ﷺ نكسوا رؤوسهم له فليس عندهم ما يغيِّرون عنه ، فسلَّم فردَّ صلوات الله وسلامه عليه ، وأحسن الثناء عليه وقال : « الحمد لله ليقلِّب الدنيا بأهلها ، لقد رأيتُ مصعباً وما بمكة فتى من قريش أنعمَ عند أبويه نعيماً منه ، ثم أخرجه من ذلك الرغبة في الخير ، حبُّ الله ورسوله » . . .

ولمّا انصرف أهل العقبة الولى الاثنا عشر من أهل يثرب ، بعثَ رسول الله ﷺ معهم المهاجر الدائم مصعب بن عمير يفقههم في القرآن الكريم وكانت تلك هجرته الثالثة .

نزل مصعب على سعد بن زرارة ، وكان يأتي الأنصار في دورهم وقبائلهم

فيدعوهم إلى الإسلام ، ويقرأ عليهم القرآن فيُسْلمُ الرجل والرجلان حتى ظهر الإسلام وفشا في دور الأنصار كلِّها .

وعلى يده أسلم سعد بن معاذ وأُسيد بن حُضَير ، ثم كتب إلى رسول الله ﷺ يستأذنه أن يُجَمِّعَ بهم ، فأذن له فجمَّعَ بهم في دار سعد بن خَيْثَمة ، فهو أول من جمَّعَ في الإسلام جمعةً .

واستدار العامُ فخرجَ حاجُّ الأوس والخزرج إلى رسول الله ﷺ لكي يُبايعوا بيعة العقبة الثانية ، فخرج معهم مصعب بن عمير ، وقد رافق في رحلته سعد بن زرارة ، فقدم مكة فجاء منزل رسول الله ﷺ أوَّلاً ولم يقرب منزله ، فجعل يخبر رسول الله ﷺ عن الأنصار وسرعتهم إلى الإسلام ، واستبقاه رسول الله ﷺ وقد سُرَّ بكل ما خبره ، وبلغ أمَّه أنه قد قدم ، فأرسلت إليه :

(يا عاق ؛ أتقدُمُ بلداً أنا فيه ولا تبدأ بي ؟!) فأجاب :

(ما كنتُ لأبدأ أحداً قبل رسول الله ﷺ . . .)

فلما سلَّم على رسول الله ﷺ ذهب إلى أمِّه فقالت :

ـ إنك لعلى ما أنت عليه من الصَّباه بعد ؟!

ـ فقال : أنا على دين رسول الله ﷺ وهو الإسلام الذي رضي الله لنفسه ورسوله . . .

فقالت : ما شكرتَ ما رئيتكَ مرةً بأرض الحبشة ، ومرةً بأرض يثرب ؟! . .

فقال : أفِرُّ بديني أن تفتنوني . . .

فأرادت أُمَّه حَبْسَه مرة أخرى فقال :

ـ لئِنْ أنتِ حبَسْتِني لأُحَرِّضَنَّ على قتل من يتعرَّضُ لي . .

ـ قالت : فاذهب لشأنك ، وجعلت تبكي! فقال مصعب :

ـ يا أمَّه إني لكِ ناصح وعليكِ شفيق ، فاشهدي أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . . . فقالت :

ـ والثواقب ، لا أدخلُ في دينكَ فيُرزى برأيي ويضعفَ عقلي ، لكن أدعكَ وما أنت عليه وأُقيمُ على ديني . . .

وأقام مصعب مع النَّبي ﷺ بمكة بقيّة ذي الحجة والمحرَّم وصفر ، ثم هاجر إلى المدينة ثانية هلال شهر ربيع الأول قبل مقدم رسول الله ﷺ باثنتي عشرة ليلة .

وهاجر سيِّدُ ولَدِ آدمَ محمد ﷺ إلى المدينة ، وأقام الدولة الإسلامية الأولى ، وعاش مصعب بن عمير تلك السنين الأولى العجاف التي مرَّت بالمسلمين راضياً ، حتى دعا الله إلى الدفاع عن دينه بالسيف ، واشتعلت نار الحرب بين قريش والمسلمين في بدر ، وكان مصعب فارسُها المجلِّي ، وعادت قريش تحمل الهزيمة والعار إلى مكة وفي القَليب أشرافُها وأصحاب الصدارة فيها مضرَّجين بالدماء ، واشتعلت النار مرة أخرى في أُحُد ، وانتصر المسلمون أول النهار ولكن مالبث أن نظر بعضهم إلى متاع الدنيا فهُزِموا ، وكان مصعب يحملُ لواء المسلمين فثبت به ثبوتَ الرَّواسي ، فأقبلَ ابنُ قَميئة إلى مصعب فضربَ يده اليُمنى فقطعَها ومصعب يقول :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

وأخذ اللواء بيده اليُسرى وحنا عليه ، فضرب يده فقطعها فحنا على اللواء فضمه بعضديه على صدره وهو يقول :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

ثم حمل عليه بالثالثة بالرمح فأنفذه واندق الرمح ، ووقع مصعب بن عمير وسقط اللواء فابتدره رجلان من بني عبد الدار ؛ سويبط بن سعد وأبو الروم بن عمير ، فأخذه أبو الروم ووقف السيِّدُ الأعظم محمد ﷺ على الشهداء يقرأ الآية :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

ثم حُمِلَ إليه مصعب بن عمير ، فنظر إليه وقد تذكَّر أيامه الماضيات في مكة ، فقال صلوات الله عليه :

« لقد رأيتُكَ بمكة وما بها أحدٌ أرقَّ حُلَّة ولا أحسنَ لِمَّةً منك ، ثم أنت مُشعَّثُ الرأس في بردة » ثم أمر به أن يُقبَر ، ونزل في قبره أخوه أبو الروم بن عمير وعامر بن ربيعة وسويبط بن سعد بن حرملة .

وكانت تلك هجرته الأخيرةَ في الأربعين سنة إلى الله ورسوله .

* * *

فُتحت البلدان على المسلمين وملَكوا نواصيَ الأُمَم ، وفي حلْقة من حلقات مسجد النَّبي ﷺ وقف خبَّاب بن الأرت يقول :

ـ هاجرنا مع النَّبي ﷺ نلتمس وجه الله ، فوجب أجرُنا على الله ، فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً ؛ منهم مصعب بن عمير ومنهم من أينق له ثمره فهو يعهد بها ؛ قُتِلَ مُصعَبٌ يومَ أُحُد فلم نجد ما نكفِّنه فيه إلا بردةً إذا غطَّينا بها رأسَه خرجت رجلاه وإذا غطَّينا رجليه خرجَ رأسُه ، فأَمَرَنا النَّبي ﷺ أن نُغَطِّي رأسَهُ وأن نجعل عليه من الإذخر .

وسكت القوم لقارىء يقرأُ في جانب من جدران المسجد . .

﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٣ـ٢٤] .

* * *

شَهْرُ العَسَل في الجنَّة
أو
غَسيلُ الملائكة

زعيمانِ من أكبر زعماء يثرب ، هما عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول زعيمُ الخزرج ، وأبو عامر بنُ صيفي زعيمُ الأوس سلبهما الإسلام جاههما الجاهليَّ الوثنيَّ ، أوَّلهما أقام في المدينة منافقاً يُبطنُ الكفر ويُظهِرُ الإسلام ، وثانيهما لجَّتْ به العداوة والبغضاء ، فخرج إلى قريش مُسْتَنْفِراً على رسول الله ﷺ وكان يُلقَّبُ في الجاهلية بأبي عامر الراهب لما يُعجبهم من عبادته وزهده ، فأسماه المسلمون أبا عامر الفاسق . . .

أمّا ابنُ عبد الله بن أُبي بن سلول ، وهو عبد الله بن عبد الله ، فقد آمن بالله ورسوله ، وجاءت أُحُد ، وخرج مع رسول الله ﷺ عبد الله بن أُبي بن سلول ، حتى إذا كانا قبل الموقعة بقليل انخذل عنه عبد الله بن أُبي بن سلول مع كتيبة من قومه من المنافقين .

أمّا أبو عامر فخرج في خمسة عشر رجلاً من الأوس ، وكان يذكر لقريش أنه إذا نادى قومه من الأوس المسلمين استجابوا له وانضموا إلى قريش ، فخرج فنادى :

ـ يا معشر الأوس ؛ أنا أبو عامر . . .

وفي ليلة الجمعة كان عُرس حنظلة بن أبي عامر ، فقد تزوَّج جميلة بنت عبد الله بن أُبي بن سلول وفي صباح ذلك اليوم نادى المنادي إلى الحرب ، فما سمعها حنظلة حتى تقلَّد سيفَه ودرعَه سِراعاً ، ثم سار إلى القتال ، فلما

بدأت الحرب قاتل قتال الأبطال ، ثم انكشف المسلمون فأخذ حنظلة يقاتل وهو يمر بعينيه بين صفوف المشركين حتى يجد أبا سفيان ، فلمّا وجده هجم عليه فوقع أبو سفيان ، وحنظلة يريد ذبحه بالسيف ، فصاح أبو سفيان مستنجداً بقريش . . .

ـ يا معشر قريش ؛ أنا أبو سفيان بن حرب . . .

فسمع الصوت رجالٌ من قريش ، فهجموا على حنظلة وضربوه ضربةً قاتلةً من وراء ظهره ، فاستدار إليهم ولكنهم تناولوه بالرِّماح فمات . . .

ومرَّ أبو سفيان بعد الموقعة بأبي عامر الفاسق يطوفان بين القَتْلى هل يريانِ محمداً ؟ فمرَّا بخارجة بن أبي زهير ، فقال أبو عامر :

ـ يا أبا سفيان هل تدري من هذا القتيل ؟

ـ فقال : لا . . .

ـ قال : إنه خارجة بن زيد بن أبي زهير الخزرجي ، هذا سيِّد بلْحارث بن الخزرج ، ثم مرَّ بعباس بن عبادة بن فضلة وهو نائم على جنبه فقال :

ـ يا أبا سفيان هذا قَوْقَل . . . هذا الشريف في بيت الشرف .

ثم مرَّا بذكوان بن عبد قيس ؛ الشريف اليثربي . . .

فقال : هذا ذكوان بن عبد قيس الشريف اليثربي .

ثم رأى ابنه وقد تناولته الرِّماح ومزَّقته ، فوقف أمامَه صائحاً . . .

ـ يا أبا سفيان أتدري من هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا أعزُّ مَنْ ههنا عليَّ ، هذا حنظلة بن أبي عامر .

ـ ولدي إنْ كنتُ لأحذِّرك من قبل هذا المصرع . والله إن كنت لبراً بالوالد شريف الخُلُق في حياتك ، وإن حِمامَكَ لمع سراة قومك وأصحابك وأشرافهم ، وإن جزى الله هذا القتيل ـ حمزة ـ خيراً أو لأحداً من أصحاب محمد فجزاك الله خيراً . . .

ثم نادى بأعلى صوته :

ـ يا معشر قريش ؛ حنظلةُ لا يمثَّل به وإن كان خالفني وخالفكم ، فلم يأل فيما يرى خيراً . . .

فمُثِّل بالناس ، ولم يُمثَّل بحنظلة . . .

هاهو الرسول ﷺ يطلع على هذا العالم الأخروي ثم يقول لأصحابه :

« إنِّي رأيتُ الملائكة تُغسِّلُ حنظلة بن أبي عامر بين السماء والأرض بماء المُزْن في صحاف الفضة » .

فأسرع الصحابة إلى حنظلة ينظرون إليه فإذا رأسه يقطرُ ماءً ، فعادوا إلى الرسول ﷺ فأخبروه ، فبعث إلى امرأته يسألها ، فأخبرَتْهم أنه ما سمع هيعة الحرب حتى خرج وهو جُنُبٌ لم يغتسل ؛ فغسلته الملائكة . . .

* * *

قاهِرُ الأكاسِرَة

قال أنس : كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ جاءه رجلٌ من أهل مصر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا مقام العائذ بك! قال : وما لك ؟ قال : أجرى عمرو بن العاص الخيلَ فأقبلَتْ فرسي ، فلمّا رآها الناس قام محمد بن عمرو فقال : فرسي وربِّ الكعبة• فلما دنا مني عرفته ، فقلت : فرسي وربِّ الكعبة ، فقام إليَّ يضربني بالسَّوط ، ويقول : خُذْها وأنا ابنُ الأكرمين . وبلغ ذلك عمراً أباه فخشي أن آتيك فحبسني في السجن فانفلتُّ منه ، وهذا حين أتيتك ، قال : فوالله ما زاده عمر على أن قال له : اجلس ، ثم كتب إلى عمرو ، إذا جاءك كتابي هذا فأقبِلْ ، وأقبِلْ معكَ بابنكَ محمد ، وقال للمصري : أقم حتى يأتيك .

فدعا عمرو ابنه ، فقال : أأحدثتَ حدثاً ؟ أجنيتَ جنايةً ؟ قال : لا ، قال : فما بال عمر يكتب فيك ؟

فقدما على عمر .

قال أنس رضي الله عنه : فوالله إنّا عند عمر ، حتى إذا نحن بعمرو ، وقد أقبل في إزار ورداء ، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه ، فإذا هو خلف أبيه ، فقال : أين المصري ؟ قال : هاأنذا ، قال : دونكَ الدرَّة فاضرب بها ابنَ الأكرَمَيْن .

فضربه حتى أثخنه ونحن نشتهي أن يضربه ، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ، ثم قال :

أجِلْها على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربكَ إلاَّ بفضل سلطانه .

قال : يا أمير المؤمنين قد استوفيتُ واشتفيتُ ، يا أمير المؤمنين قد ضربتُ مَنْ ضربني ، قال : أما والله لو ضربتَه ما حُلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه ، ثم قال كلمته الرائعة :

أيا عمرو ؛ متى تعبَّدتم الناس وقد ولدتهم أُمهاتهم أحراراً ؟

فجعل عمرو يتعذر ويقول : إني لم أشعر بهذا .

ثم التفت عمر إلى المصري فقال : انصرف راشداً ، فإن رابكَ ريب فاكتب إليَّ . . .

هذا غيضٌ من فيض من الأمثلة الرائعة التي خلَّفها لنا تاريخ العدالة الإسلامية .

ولنضرب على ذلك مثلاً آخر :

وكان عمر رضي الله عنه جالساً مع أصحابه فمرَّ به رجلٌ فقال له :

ويل لك يا عمر من النار! فقال رجل : يا أمير المؤمنين ؛ ألا ضربتَه ؟

وقال رجل آخر : ألا سألته ؟ فقال عمر : عليَّ بالرجل ، فقال : لِمَ ؟

قال : تستعمل العاملَ وتشترط عليه شروطاً ، ولا تنظر شروطه . قال : وما ذاك ؟

قال : عاملك على مصر ، اشترطتَ عليه شروطاً فترك ما أمرتَه به ، وانتهكَ ما نهيتَه عنه .

فأرسل إليه رجلين[1] ، فقال : سلا عنه ، فإن كان كذب عليه فأعلماني ، وإن كان صدق فلا تملِّكاه من أمره شيئاً حتى تأتياني به . فسألا عنه فوجداه قد صدق عليه ، ـ أي كما قال الرجل ـ فاستأذنا ببابه ، فقال : إنه ليس عليه إذن ، فقال : ليخرجنَّ إلينا أو لنحرقن بابه ، وجاء أحدُهما بشعلة من نار ، فلما رأى

---

(١) أحدهما محمد بن مسلمة .

ذلك آذنه ـ أخبره ـ فخرج إليهما ، فقالا : إنّا رسولا عمر لتأتيه ، قال : إنَّ لي حاجةٌ بتزوُّد .

قالا : ما أنت بالذي تأتي أهلك ، فاحتملاه فأتيا به عمر رضي الله عنه ، فسلَّم عليه ، فقال : من أنت ويلك ؟ قال : عاملك على مصر (عِياض بن غَنْم) .

وكان رجلاً بدوياً ، فلما ذاق من نعيم مصر تغيَّر حالُه إلى الرَّخاء والرَّفاه ، فقال :

ـ استعملتُكَ وشرطتُ عليكَ شروطاً فتركتَ ما أمرتُكَ به ، وانتهكتَ ما نهيتُكَ عنه ، أما والله لأعاقِبَنَّكَ عقوبةً أُبلغ إليكَ فيها ، اتوني بدُرَّاعة من كساء وعصا وثلاثمائة شاة من شاء الصدقة .

قال : البس هذه الدرَّاعة وقد رأيتُ أباك وهذه خير من درَّاعته ، وهذ العصا خير من عصاه ، اذهب بهذه الشاء فارعها في مكان كذا وكذا ـ وذلك في يوم صائف ـ ولا تمنع السائل من ألبانها شيئاً ، واعلم أنّا آلَ عمر لم نُصب من شاء الصدقة ومن ألبانها ولحومها شيئاً .

فلمّا أمعَنَ ردَّه ، وقال :

ـ أفهمتَ ما قلتُ لك ؟ وردَّدَ عليه الكلام ثلاثاً ، فلمّا كان في الثالثة ضرب بنفسه الأرض بين يديه ، وقال : ما أستطيع ذلك ، فإن شئت فاضرب عُنقي . قال : فإن رددتُكَ فأيُّ رجلٍ تكون ؟!!...

قال : لا ترى إلا ما تحبُّ! فردَّه .

فكان خير عامل[1] .

* * *

(١) عامل : أي أمير يلي الأعمال نيابة عن الخليفة .

فارسُ رسول الله ﷺ ورضي عنه

حديثي هذا عن رجل من الرعيل الأول لُقِّب بفارس رسول الله ﷺ لسابقته في الإسلام ولجهاده في سبيل الله في حياة النَّبي ﷺ وبعده ، وكان له نصيب وافر من رضا رسول الله ﷺ وخليفَتَيْه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ذلكم هو الصحابي الجليل محمد بن مَسْلمة الأوسي رضي الله عنه وأرضاه .

أسلمَ رضي الله عنه على يد مصعب بن عمير بن هاشم العبدري عندما بعث به النَّبي ﷺ إلى المدينة قبل الهجرة ، فكان إسلام محمد بن مسلمة الأنصاري الأوسي أقدمَ من إسلام سعد بن معاذ وإخوانه من الأنصار .

نشأ محمد بن مسلمة أسمر طويلاً معتدلاً ممتلىء الجسم أصلع مقداماً في العزائم صداعاً في الحق سريعاً إلى الخير مبغضاً للفتن وأهلها ، وأنجب للإسلام عشرة من الذكور كلهم من أهل الخير ، فقد أدرك نصفُهم صحبة رسول الله ﷺ وهم : (عبد الرحمن ، وعبد الله ، وجعفر ، وسعد ، وعمر) ولمّا قدم النَّبي ﷺ المدينة وتبعه المهاجرون ؛ فآخى بين كل مهاجريٍّ وأنصاريٍّ ؛ آخى بين محمد بن مسلمة وأمين هذه الأمة أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح الفِهري ، أحد العشرة المبشَّرين بالجنة ، وصاحب الفتوح الخالدة .

شهد محمد بن مسلمة بدراً وجاهد مع رسول الله ﷺ في جميع الميادين ، ولم يتخلف إلا في غزوة تبوك بأمر من النَّبي ﷺ وأغلب الظنّ أنه كان خليفة على المدينة في غيبته إلى أن عاد من تبوك .

وكان ثقةَ النَّبي ﷺ في العظام التي لا يصمد فيها إلا أهل العزائم ، من ذلك

أن ابن اليهودية عدو الله كعب بن الأشرف الطائي ، لمّا أسرف في إيذاء المسلمين والكيد للإسلام بثروته وجاهه وشجاعته وبلاغته في شعره ، حتى تطاول إلى التشبيب بنساء المسلمين وذهب إلى مكة في بني سهم وجعل ينظم أبلغ الشعر في رثاء أهل القَليب من قتلى بدر ليهيج قريشاً لتاراتها ، رأى النَّبي ﷺ من الخير للإنسانية بتر هذا العضو الفاسد من أعضائها وأنه إن لم يُقتل فستُسفك بشعره وتحريضه دماء لا ترقأ ، فقال يوماً لأصحابه وكلهم في حالة حرب مع كعب بن الأشرف والذين هم على شاكلته :

« من لي بابن الأشرف » ؟!

فقال محمد بن مسلمة : أنا لك به يارسول الله ؛ أنا أقتله . . .

قال : فافعل إن قدرت على ذلك . . .

فرجع محمد بن مسلمة ، فمكث ثلاث ليالٍ لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق به نفسه لما أهمه من هذا الأمر ، فلمّا علم النَّبي ﷺ بذلك دعاه فقال له : « لِمَ تركتَ الطعام والشراب ؟ » .

قال : يارسول الله ، قلت لك قولاً لا أدري هل أفيَنَّ لك به أم لا . . .

فقال ﷺ : « إنما عليك الجهد . . . »

واختار محمد بن مسلمة لمرافقته في هذه المهمة أربعة من الرجال هو خامسهم ، أحدهم من أسرته بني حارثة الأوسيين هو أبو عبس بن جبر ، والآخرون من حلفائه بني عبد الأشهل ، أولهم أخ من الرضاعة لكعب بن الأشرف هو أبو نائلة سلطان بن سلامة بن وقش ، وابن عمه عباد بن بشر بن وقش ، عم الحارث بن أوس بن معاذ الأشهلي .

ولما أزمعوا أمرهم جاؤوا رسول الله ﷺ وقالوا :

يارسول الله ، إنه لابد لنا من أن نقول ـ أي أن يتظاهروا بالعداوة للإسلام حتى يتمكّنوا من الرجل ـ فقال : « قولوا ما بدا لكم فأنتم في حِلٍّ من ذلك » فلما نهضوا ليقوموا بمهمتهم ، مشى معهم ﷺ إلى بقيع الغرقد ، ثم وجَّههم ،

فقال : « انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعِنهم » ثم رجع إلى بيته وفي ليلة مقمرة ، وأقبلوا حتى انتهوا إلى حصن كعب بن الأشرف في ظاهر يثرب فاستنزلوه وأعملوا فيه السيف ، فقُتل وهو يصيح صيحة لم يبقَ حول حصنه حصن إلا أوقدت عليه النيران لتعرف خبر ذلك الصوت ، ولمأ أصابت الأوس كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله ﷺ قالت الخزرج : والله لا يذهبون بها فضلاً علينا أبداً ، فتذاكروا مَنْ رجلٌ في العداوة لرسول الله ﷺ كابن الشرف ؟ فذكروا رأس اليهود وطاغيتهم سلام بن أبي الحقيق في خيبر ، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في قتله بمعقله في خيبر ، ولمّا قتله الخزرج قال حسان بن ثابت :

لله در عصـــابـــة لاقيتهـــم ... بابن الحقيق وأنت بابن الأشرفِ
يسـرون بـالبيـض الخفـاف إليكـم ... مرحاً كأسْدِ في عرين مغرفِ
حتـى أتـوكـم فـي محـل بيـوتكـمْ ... فسقـوكـم حتفـاً ببيـضٍ ذُفَّـفِ
مستنصـريـن لنصـر ديـن نبيهـم ... مستصغـريـن لكـل أمـر مجحـفِ

ويوم تآمرت يهود بني النَّضير على النَّبي ﷺ في السنة الرابعة للهجرة وأرادت أن تلقي عليه الصخرة وهو مستظل بجدار من جدران بيوتها ، عدَّ ﷺ هذا الغدر نقضاً من اليهود لعهودها ، فندب محمد بن مسلمة ليبلِّغهم أمره لهم ، بالجلاء عن الحجاز إلى جنوب الشام على ألا يحملوا معهم شيئاً من أسلحتهم ولأمتهم ـ أي دروعهم ـ وكان الأوس ـ قوم محمد بن مسلمة ـ حلفاء قدماء لبني النضير فقالوا لابن مسلمة :

ـ يا محمد ، ما كنا نظن أن يجيئنا بهذا الأمر رجل من الأوس .

فقال محمد بن مسلمة : تغيَّرت القلوب ، ومحا الإسلام تلك العهود . . .

فقال اليهود : نتحمَّل!

وخرجوا بلا سلاح ولا ذخيرة لكل ثلاثة منهم بعير وسقاء .

ثم لما نزلت يهود بني قريظة على حكم النَّبي ﷺ في السنة الخامسة

للهجرة ، كان محمد بن مسلمة قائد حرس رسول الله ﷺ وقد تصرَّف في هذه المهمة العسكرية تصرُّف القائد الحكيم مطلَق اليد ، وأقرَّه النَّبي ﷺ على تصرُّفه .

وشهد محمد بن مسلمة حرب المسلمين مع اليهود في خيبر في السنة السابعة للهجرة ، فأبلى فيها بلاءً حسناً ، واستشهد في تلك الحروب أخوه فحاول أن يثأر لأخيه من بطل اليهود (مَرْحَب) وأثخن فيه إثخاناً كوفىء عليه بأخذ سلبه بعد قتله ، ثم كان ثأره لأخيه بقتله كنانة بن الربيع بن أبي الحُقيق وصار يقال بعد ذلك لمحمد بن مسلمة (فارس رسول الله ﷺ) وفي عمرة القضية سنة ثمان كان محمد بن مسلمة أميراً على خيل المسلمين ، كما كان قائد غزوة القرطاء من هوازن وهكذا كانت حياة هذا الصحابي الجليل جهاداً متواصلاً في سبيل الله .

ولقد كان محمد بن مسلمة أطوع الناس لوصية رسول الله ﷺ فقد روى الحسن البصري عن محمد بن مسلمة رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ أعطاه سيفاً وقال له : « قاتل به المشركين ما قاتلوا ، فإذا رأيتَ أُمَّتي يضربُ بعضهم بعضاً فأت جبل أُحُد فاضرب به حتى ينكسر ، ثم اجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو منية قاضية »ففعل ، وقال حذيفة : إني لأعرف رجلاً لا تضرُّه الفتنة ، وذكر محمد بن مسلمة وصرَّح بسماعه هذه الوصية من النَّبي ﷺ .

على أن محمد بن مسلمة كان في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب يده اليمنى في كشف الأمور المعضلة والإشراف على الولاة والأمراء فيما يشكوه أهل الأمصار من أعمالهم ، فإذا كانت الحالة مارَّة سارَّة والرعية مغتبطين بولاتهم لا يدع عمر يده اليمنى عاطلة من العمل ، فسيرمي بمحمد بن مسلمة إلى أي عمل آخر من أعمال الدولة ، فيوماً يلي صدقات جهينة ، ويوماً تجده على ثغرة أخرى من ثغور الإسلام ، وكل عمل كان عمر يحب أن يؤدَّى كما يريد يرمي بمحمد بن مسلمة إليه ؛ فيؤدِّيه بأمانة وبصيرة وإتقان .

هذا سعد بن أبي وقّاص صاحب رسول الله ﷺ وأحد العشرة المبشَّرين

بالجنة وفاتح العراق وإيران ومن الذين قُبِض عنهم ﷺ وهو عنهم راض ، ينمُّ عليه النمَّامون من أهل الكوفة إلى عمر بأنه بنى في الكوفة قصراً وجعل بينه وبين الرعية باباً مغلقاً ، فهل يسكت عنه عمر ؟ هل يشفع له عنده أنه المجاهد الفاتح والأمير الصالح ، وصاحب الدعوة ليس بينها وبين السماء حجاب ؟ إن عمر لا يكتفي بالخير الماضي ، ولا يعتقد وجوب العصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ ، فإذا كان سعد من أهل الخير فيما مضى فقد مضى ، ويجب على سعد أن يكون مصدر خير في كل لمحة ونَفَس .

ـ يا محمد بن مسلمة ، عليك بسعد بن أبي وقاص ، فقد زعم أهل الكوفة أنه صار نمروداً في أرض بابل ، اذهب إلى الكوفة ، واكشف لي عن هذا القصر الذي بناه أمير العراقين وفاتحهما ، وإذا رأيت للقصر باباً أغلقه سعد في وجوه الناس فأضرم فيه النار حتى لا يبقى بين سعد والرعية باب ، ثم ارجع إليَّ من حيث جئت . . .

وتسرع الناقة بمحمد بن مسلمة تطوي الأرض بين المدينة والكوفة ، حتى يقف أمام ما سمُّوه (قصر سعد) فيرى داراً متواضعة بناها لتحول بينه وبين ضجيج الأسواق المجاورة لمكان الحكم ، وكانت الغوغاء تمنع سعداً قبل ذلك من أن يسمع حديث أصحاب الحاجات الذين يقصدون الأمير بحاجاتهم ، فلما بنى هذه الدار سمَّاها محبُّو الفتنة من أهل الكوفة (قصراً) وادَّعوا عليه ما لم يفعل ، إلا أن للدار باباً وقد أمر الخليفة بإحراقه ، فجمع محمد بن مسلمة حطباً وأضرم به الباب ، ثم أراد أن يعود من حيث أتى ، فدعاه سعد وأراده على دخول داره والنزول عنده ـ لأنه صديقه القديم ـ المجاهد معه في ركاب النَّبي ﷺ دهراً طويلاً ، فأبى أن يدخل ، وعرض عليه سعد الزاد لسفره فرفضه ، ورجع من فوره وقبل أن يصل إلى المدينة فني زاده فصار يأكل نبات الأرض ولحاء الشجر إلى أن بلغ عمر فأخبره خبره فقال عمر : (إن سعداً أصدق مما روي عنه ، وما بلغني عنه) .

إن محمد بن مسلمة لا تضرُّه الفتن كما سمع ذلك حذيفة من فم النَّبي ﷺ ،

لذلك استطاع أن يكون في الفتنة رجلاً صالحاً يرد كيد أعداء الله عن دين الله وعن أولياء الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فلما تمَّ لعثمان رضي الله عنه ما بشَّره به رسول الله ﷺ من الشهادة ؛ ذهب محمد بن مسلمة إلى صخرة في جبل أُحُد فكسر عليه سيفه واتَّخذ لنفسه سيفاً من خشب ، وسكن الرَّبذة ، وكان هو وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وأبو موسى الأشعري ، وأبو مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري ، وأسامة بن زيد ، وأبو بكرة نفيع بن الحارث الثقفي ، وحكيم تميم وعظيمها الأحنف بن قيس على رأس جمهور الأمة الأعظم في الكف عن القتال بين المسلمين ، إلى أن لقي محمد بن مسلمة ربَّه في شهر صفر سنة ٤٣ هـ عن خمس وسبعين سنة فصلَّى عليه أمير المدينة مروان بن الحكم وصُلِّي عليه مع بقية الصحابة وصالحي التابعين .

رحمه الله ورضي عنه ، وبعث فينا أخلاقه وفضائله ، ووفقنا إلى الاقتداء به في صدقه وجهاده وولايته للإسلام وأهله .

* * *

سَيِّدُ أهْلِ عَصْرِه

حدَّث بعض مشيختنا قال :

كان شيخنا أبو علي الفضيل بن عياض يكاد يكون أُمَّةً وحدَه ، في شخصيته الفريدة وإرادته القوية وإيمانه الفَذّ .

ولقد حدَّث الفضل بن الربيع وزير الرشيد قال :

حج الرشيد فبينا أنا نائم إذ سمعتُ قرع الباب فقلت :

ـ من هذا ؟

فقال : أجِبْ أمير المؤمنين . . .

فخرجتُ مُسرعاً فإذا أنا به أمير المؤمنين . . . !

فقلتُ : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك . . . !!

فقال الرشيد : ويحك ، قد حاك في نفسي شيء ـ أي هَمٌّ عظيم ـ لا يخرجه إلا عالمٌ ، انظر لي رجلاً أسأله .

فقلتُ : هاهنا الفضيل بن عياض . . .

فقال : امضِ بنا إليه ، فأتيناه فإذا هو قائم يصلي في غرفته يتلو آية من كتاب الله ويردِّدُها فقرعتُ الباب ، فقال : من هذا ؟ . . .

فقلتُ : أجب أمير المؤمنين . . .

فقال : ما لي ولأمير المؤمنين ؟! . . .

فقلتُ : سبحان الله ! . . . أما عليكَ طاعتُه ؟ . . .

فقال : أو ليس قد روي عن النَّبي ﷺ أنه قال :

« ليس للمؤمن أن يذِلَّ نفسه . . . ؟ » .

ثم نزل ففتح الباب ، ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السراج ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة ، فجعلنا نجول عليه بأيدينا ! . . .

فسبقَتْ كفُّ الرشيد كفي إليه . . .

فقال : أوَّاه من كف ما ألينها إن نجت من عذاب الله تعالى . . .

قال : فقلتُ في نفسي : ليكلِّمنَّه الليلة بكلامٍ تقي من قلبٍ تقي .

فقال الرشيد : خُذْ لنا ما جئناك له يرحمك الله .

قال : وفيم جئت ؟ حملت على نفسك ، وجميع من معك حملوا عليك ، حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك شقصاً[1] من ذَنْب ما فعلوا ، لكان أشدُّهم حُبًّا لك أشدُّهم هرباً منك . . .

ثم قال : إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ، ومحمد بن كعب القرظي ، ورجاء بن حَيْوة ، فقال لهم : إني قد ابتُليتُ بهذا البلاء فأشيروا عليَّ . . .

ـ فعَدَّ الخلافة بلاءً وعدَدتها أنت وأصحابك نعمة ! !

فقال سالم بن عبد الله : إن أردتَ النجاة غداً من عذاب الله فصُمْ عن الدنيا وليكن إفطارُكَ فيها على الموت . وقال محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله غداً فليكن كبيرُ المسلمين لك أباً ، وأوسطُهم عندكَ أخاً ، وأصغرُهم ولداً ، فبر أباك ، وارحم أخاك ، وتحنَّن على ولدك . . .

وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة من عذاب الله غداً فأحبَّ للمسلمين ما تحبُّ لنفسك ، واكره ما تكرهه لنفسك ، ثم متى شئتَ مُتْ . . .

وإني لأقول لك هذا ، وإني لأخاف عليك أشدَّ الخوف يوم تزِلُّ الأقدام . . .

---

(١) الشقص هو الحصة المشاعة ، والمراد به هنا : قسماً صغيراً اهـ .

فهل معك ـ يرحمك الله ـ مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا ؟! . . .

فبكى هارون الرشيد بكاءً شديداً حتى غشي عليه . . .

فقلتُ : ارفُقْ بأمير المؤمنين . . .

فقال : يا ابن أم الربيع . . قتلتَه أنت وأصحابك وأرفق به أنا ؟! . .

ثم أفاق الرشيد فقال : زِدْني . . .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إنَّ العبّاس عمّ رسول الله ﷺ جاء فقال : يارسول الله ، أمِّرْني على إمارة ، فقال له النَّبي ﷺ :

« يا عبّاس . . عمّ النبي ، نفسٌ تُحييها خيرٌ من إمارة لا تحصيها . . إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة . . . فإن استطعتَ ألاَّ تكون أميراً فافعل . . . » .

فبكى هارون بكاءً شديداً حتى غُشي عليه ، ثم قال : زِدْني يرحمُكَ الله . . .

قال : يا حَسَنَ الوجه ، أنت الذي يسألك الله تعالى عن هذا الخَلْق يوم القيامة ، فإن استطعتَ أن تقي هذا الوجه من النار فافعل . . . وإيَّاكَ أن تُصبح وتُمسي وفي قلبكَ غِشٌّ لرعيَّتكَ فإن النَّبي ﷺ قال : « من أصبح لهم غاشًّا لم يرح رائحة الجنة » .

فبكى هارون الرشيد بكاءً لم يبكِ قبلَه مثله ، ثم قال :

ـ عليكَ دَيْن ؟

ـ قال : نعم دَيْن لربي لم يحاسبني عليه ، فالويل لي إن سألني ، والويل لي إن ناقشني ، والويل لي إن لم يلهمني حُجَّتي . . .

فقال الرشيد : إنما أعني دَيْنَ العِباد!

قال : إنَّ ربي لم يأمُرني بهذا ، وأمرني أن أصدق وعده وأُطيع أمره فقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن

يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٦-٥٨] .

فصَغُرَ الرشيد في نفسه وصغُر وصغُر حتى صار هذا الخليفة العظيم عند نفسه أصغر من ذبابة ، وكبر الشيخ بعينه وكبر وكبر حتى صار كالجبل العظيم .

قال ابن الربيع : فقال الرشيد له : هذه ألف دينار فأنفقها على عيالك وتقوَّ بها على عبادة ربِّك ، فقال : سبحان الله! . . .

أنا أدلُّكَ على النجاة وتكافئني بمثل هذا ؟! . . . سلَّمكَ الله ووفَّقك . . .

قال : ثم صمت فلم يكلِّمنا ، فخرجنا من عنده .

هارون الرشيد ؛ هذا سيد المسلمين اليوم . . . هذا أفضل أهل الأرض . . .

ويروى أن زوجته نازعته لِمَ لم يقبض المال ؟ فقال : ما مثلي ومثلكم إلا كمثَل قوم عندهم بعير يركبون عليه ويستخدمونه فلما أسَنَّ ذبحوه . . .

* * *

أمّا عن بداية حال الفُضيل فلقد كان شاطراً عيَّاراً ـ أي قاطع طريق ـ قبل أن يلج طريق أهل الله ، كان يقطع الطريق بين أبِيْوَرْدَ وسرخس ، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقي الجدار إليها سمع تالياً يتلو قوله تعالى :

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد : ١٦] .

فقال الفُضيل : يا رب قد آن . . .

وصالحَ ربَّه عز وجل في لحظته تلك . . .

ورجع فآواه الليل إلى خربة فإذا فيها رِفْقةٌ ـ أي جماعة ـ فقال بعضهم :

نرتحل . . .

وقال قوم :

حتى نصبح ، فإنَّ فُضيلاً يقطع الطريق علينا . . . قطع الله عليه طريقه . . .

فاستفاق الفضيل لنفسه . . . وقال :

ويحك يا فضيل . . . أصبحتَ مروِّعاً ؟! . . .

فتاب وأمَّنهم وجاور الحرم حتى مات بمكة[1] . . .

ولقد كان رضي الله عنه شديدَ الخوفِ دائمَ الفكر ، قال ابن المبارك :

إذا مات الفضيل ارتفع الحزن . . .

وقال أبو علي الرازي : صحبتُ الفضيل ثلاثين سنة ما رأيتُه ضاحكاً ولا مبتسماً إلا يوم مات ابنه علي ـ لأن الفضيل كان يكنَّى أبا علي ـ فقلتُ له في ذلك ؟!

فقال : إنَّ الله أحبَّ أمراً فأحببتُ ذلك . . . !!

ومن أقواله رضي الله عنه : (قلوب العارفين : الهموم عمرانها ، والأحزان أوطانها) ، وقال : (وجعل الله الشرَّ كلَّه في بيت ، وجعل مفتاحه حبّ الدنيا ، وجعل الخير كلَّه ببيت وجعل مفتاحه الزُّهد فيها) ، وقال : (مَنْ خاف الله لم يضرّه شيء ، ومَنْ خاف غيرَه لم ينفعه شيء) .

وقال : (يهابكَ الخَلْق على قدر هيبتك الله) .

وقال رضي الله عنه : (لو أن الدنيا بحذافيرها عُرضت عليَّ ولا أُحاسب بها لكنت أتقذَّرها كما يتقذَّر أحدكم الجيفةَ إذا مرَّ بها أن تصيب ثوبه) .

وقال : (إذا أحبَّ الله عبداً أكثر غمَّه بتذكُّر أمر آخرته وبتقصيره في أمر دُنياه ، وإذا أبغضَ عبداً وسَّع عليه دنياه ، أي شغله عنه بحبِّه لها) . . .

* * *

---

(١) هو خراساني من ناحية مرو وأبيورد مات سنة ١٨٧ هـ وتفقه على الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان بن ثابت رضي الله عنهم أجمعين ، وكان السري السقطي رحمه الله قد سمع من الفضيل الحديث ، ومعنى توبته هنا أن جددها وأظهرها اهـ .

عَظَمات الرَّشيد

أعظم خلفاء بني العباس وأكبر ملوكِ الأرض

الرشيد أعظم ملوك عصره . . . صاحب العصر الذهبي في الدولة العباسية ، كان رحمه الله مثالاً للعدل وعنواناً للخير ، كان يحجُّ سنة ويغزو سنة ، وكان مولعاً مستهتَراً بغزو الروم وإذلالهم وقهرهم وفتح بلادهم حتى هابَتْه الفرنجة كلهم ، ورهبوا جانبه ، وأعطَوْه الجزيةَ وكاتبوه ، وبعثوا إليه بالهدايا الفاخرة الثمينة ، وأرسلوا إليه الوفود تطلب رضاه ، فإذا غضب لله عز وجل لا يقوم لغضبه شيء ، فلا يرجع إلا بالفتح المؤزَّر على رأس الجحافل من فرسان المسلمين وتحت الثلج في أشدِّ شهور الشتاء برداً[1] .

لذلك كان الرشيد أبداً هدفاً لغارات الفرنجة ومن لَفَّ لَفَّهم من إمَّعات الشرق ، يصوِّرون الرشيد بأنه رجل خمر ونساء وغناء وقيان فهو ثَمل لا يكاد

---

(١) غزا سنة في أرض الروم ولازال يفتح بلادهم حتى خافه نفقور ملكهم على نفسه فهادن الرشيد وكتب بينه وبينه عهداً إلى مدة معينة طويلة الأمد ، وكانت تلك الغزوة في الشتاء وصادف ذلك كثرة الثلوج والأمطار ثم رحل الرشيد ، حتى إذا وصل إلى قرب الرقة نقض نقفور العهد وكان الرشيد مهيباً فلم يجرؤ أحد على مجابهته بهذا الخبر فأنبأه به أحد شعرائه بقوله :

نقـــض الـــذي عـــاهـــدتـــه نقفـــور ... فعليـه جـائـرة البـوار تـدور

قالوا : فغضب الرشيد غضبة لم يغضب مثلها قط وحلف ألاَّ يرجع حتى يغزوه ثانية ، ورجع الجيش غازياً حتى فتح الله عليه وأذلَّ نقفوراً وأعز الإسلام وأهله .

يفيق ، لا يهمه من أمر الدولة إلا إرواء شهواته ولذّاته وأوطاره ، ولا يعرف من أمر المملكة سوى ما يقال له من قبل وزرائه وحجّابه ، وهم معذورون في كل هذه الخيانة للتاريخ والإسلام ، لأن الرشيد علّمهم دروساً بليغة في الحرب والجهاد ، الرشيد هو الذي غزا الفرنجة في عقر دارهم دفاعاً عن الإسلام ، الرشيد هو الذي يتّمَ أطفال الفِرَنْجَة ، ورمَّلَ نساءهم ، وفتحَ ديارهم وأزال مُلكهم المبني على الجور والظلم ، وشيَّد بدل ذلك مُلكاً مبنياً على العدل والتضحية والإيثار .

وكان رحمه الله يسمع مواعظ العلماء أو الزهّاد والصالحين ويلين لها ويطلبها من أصحابها طلب الظمآن لسلسبيل الفرات ، ويُجهد نفسه في تطبيقها والعمل بها ، فلو ذهبتَ تقرأ عن الرشيد في كتب المؤرِّخين المسلمين لوجدة صورةً غير تلك الصورة التي صوَّر بها الفرنجة الرشيد ، فاقرأ إن شئت تاريخ المسعودي ، والخطيب البغدادي ، وتاريخ الطبري ، وابن عساكر وغيرهم تجد أن الرشيد كان مُسلماً ملتزماً بالإسلام ديناً ومنهجاً للحياة ، يعمل للإسلام ويجاهد في سبيل الله بنفسه وماله صالحاً عابداً ناسكاً يسمع المواعظ والحِكَم ، ويُصغي للعلماء العاملين يتودَّدُ لهم ويطلبُ رضاهم ويجعلهم جلساءه وندماءه ، على أنه لا يخلو من هفوات قليلة ، ومنذا الذي ما أساء قط ؟!...

هذا ؛ ولقد كان الخلفاء العباسيون الأُوَل خلفاء ذوي هيبة وصولة ، وكان واسطة عِقْدهم الرشيد ، ذلك الخليفة الذي ما عرفت الدنيا بعد الصحابة والتابعين مثله في عدله وإنصافه للرَّعية ولم تعرف مثله ؛ الرشيد الذي كان يحجُّ سنة ويغزو سنة ، الرشيد الذي نذر أن يحجَّ ماشياً فوفى بنذره فحجَّ من بغداد إلى مكة ماشياً على قدميه ، الرشيد الذي قهر الصليبيين الروم وأذلَّهم وقهر شارلمان في عاصمة مُلكه ، وانصاعت له الملوك في عصره وأرسلت له الهدايا علامة الصداقة والسلام ، ولهذا تجدهم أو تجد أحفادهم اليوم يحاولون أن يشوّهوا سمعة الرشيد والمأمون وغيرهم ويكذبوا عليهم ما شاء لهم الخيال

أن يكذبوا ، يريدون أن يُطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتمَّ نوره .

ودونكم قصةً للرشيد مع رجل كان يُعَدُّ في عصره قمَّةَ الصلاح والتقوى ويكفي فيه شهادة الرشيد نفسه بأنه (أفضل أهل الأرض) . . .

أجَلْ ؛ هذا الرشيد الذي كانت أمم الأرض في زمانه وملوكها وجيوشها تدفع الجزية للمسلمين من مشارق الصين شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً ، ومن القسطنطينية شمالاً إلى مشارف المحيط الهندي جنوباً . الرشيد الذي كان يقول للسحابة : (أمطري أينما شئت فسيأتيني خراجك) يقف مذهولاً مغشياً عليه أمام رجل لا يملك سيفاً ولا ترساً ولا رمحاً وليس معه من أسباب القوة شيء إلا كلمة الحق وقولة الحق . . فمن هذا الرجل الولي الرباني الكبير ؟! . . .

إنه الفضيل بن عياض وليُّ بغداد وسيِّد أهل زمانه . . .

وقد مرَّت قصَّتُه مع الرشيد في (سيد أهل عصره) فلتُنظَر هناك . . .

* * *

أمّا الرشيد فهذا طرفٌ من سيرته العطرة التي تُظهر حقيقته :

دخل ابن السمَّاك العالِم الزَّاهد على الرشيد فوافق أن وجده يرفع الماء إلى فمه ليشرب .

فقال : ناشدتُكَ الله يا أمير المؤمنين أن تنتظر قليلاً . . .

فلما وضع الماء قال له : أستحلفُكَ بالله تعالى لو أنَّكَ مُنِعْتَ هذه الشُّربة من الماء فبكم كنتَ تشتريها ؟

قال : بنصف مُلكي .

قال : اشرب هنَّاكَ الله يا أمير المؤمنين .

فلمّا شرب قال : أستحلفُكَ بالله تعالى يا أمير المؤمنين لو أنَّكَ مُنِعْتَ خُروجَها من جوفك بعد هذا فبكم كنت تشتريها ؟

قال : بملكي كلّه . . .

فقال : يا أمير المؤمنين ؛ فإنَّ مُلكاً تربو عليه شربةُ ماءٍ لخليقٌ ألاَّ يُنافَسَ فيه . فبكى هارون الرشيد حتى ابتلَّتْ لحيته ، فقال الفضل بن الربيع ـ وكان واقفاً بين يديه ـ مهلاً يا بن السمَّاك ؛ فأمير المؤمنين أحقُّ من رجا العاقبة عند الله بعدله في مُلكه وحُسنِ قيامه بحقِّ ربِّه .

فقال ابن السماك : يا أمير المؤمنين ، والله إن هذا ليس معك في قبرك غداً ، فانظر لنفسك فأنت بها أخبر وعليها أبصر وأما أنت يا فضل . . . فمن حقِّ أمير المؤمنين عليك في تقريبه إيَّاك وبرِّه بك أن تكون يوم القيامة من حسناته لا من سيآته فذلك أكفأُ ما تؤدِّي به حقَّه عليك والسَّلام . . .

ويُروى أن ابن السمَّاك هذا ـ واسمه محمد بن صبيح بن السماك البغدادي الواعظ ـ دخل على الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين إن تواضعك في شرفك أشرفُ لك من شرفك .

فقال الرشيد : ما أحسنَ ما قلتَ ؟! . . .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن امرءاً آتاه الله جمالاً في خلقته وموضعاً في حسبه وبسط له في ذات يده فعفَّ في جماله وواسى في ماله ، وتواضع في حسبه ، كُتِبَ في ديوان الله من خالص عباد الله ، فدعا هارون بدواة وقرطاس ؛ وكتب ذلك بيده .

ويُرْوى أن الرشيد بعث إلى ابن السمَّاك فدخل وعنده يحيى بن خالد البرمكي فقال يحيى :

إن أمير المؤمنين أرسلَ إليكَ لما بلغه من صلاحٍ عنك في نفسك ، وكثرة ذكر منك لربِّك عز وجل ، ودعائك للعامَّة .

فقال ابن السمَّاك : أمَّا ما بلغ أمير المؤمنين من صلاح عنّا في أنفسنا ، فذلك بستر الله علينا فلو اطَّلع الناس على ذنب من ذنوبنا لما أقدم قلبٌ على مودَّةٍ ولا جرى لسانٌ لنا بمِدْحة ، وإني لأخاف أن أكون بالستر معروفاً ،

وبمدح الناس مفتوناً ، وإني لأخاف أن أهلِكَ بها وبقلَّة الشُّكر عليها ، فدعا الرشيد بدواة وقرطاس فكتبه بيده .

ولما حجَّ الرشيد بعث إلى مالك بن أنس رضي الله عنه إمام دار الهجرة بكيس فيه خمسمائة دينار ، فلما قضى نسكه ودخل المدينة بعث إلى مالك ؛ أن أمير المؤمنين يحبُّ أن تنتقل معه إلى مدينة السلام ، فقال للرسول : قل له إنَّ الكيس بخاتمه . وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « والمدينة خير لو كانوا يعلمون » .

ويذكر الرُّواة أن الرشيد حجَّ فلما كان في السعي قال رجل لعبد الله بن عبد العزيز العُمري وهو يجلسُ في زقاق الشَّطوي بمكة : يا أبا عبد الله هو ذا أمير المؤمنين يسعى وقد خلا له المسعى ، فقال العمري للرجل : لا جزاك الله خيراً كلَّفتَني أمراً كنت عنه غنيًّا ، ثم قام فأقبل هارون الرشيد من المروة يريد الصفا فصاح به :

يا هارون . . . فلما نظر إليه قال : لبَّيك يا عمري ، قال : ارق الصفا ؛ فلمّا رقيه قال : ارم بطرفك إلى البيت . . . قال : قد فعلت . . قال : كم هم ؟ قال : ومن يحصيهم ؟ قال : فكم من الناس مثلهم ؟ قال : خلقٌ لا يحصيهم إلا الله ، قال : اعلم أيها الرجل أن كلَّ واحدٍ منهم يُسأل عن حاجة نفسه وأنت وحدكَ تُسأل عنهم كلِّهم ، فانظر كيف تكون . . .

فبكى هارون وجلس ، وجعلوا يعطونه منديلاً للدموع ! !

قال العمري : وأُخرى أقولها . . . قال : قل يا عم . . .

والله إن الرجل ليُسرف في ماله فيستحقُّ الحَجْرَ عليه فكيف فيمن أسرف في مال المسلمين . . . ؟ !

ثم مضى وهارون يبكي حتى أُغمي عليه . . .

ودونكم قصَّةً أُخرى من مآثر الرشيد توضح صورة ممتازة عن سلوكه الحميد ، من ذلك ما روى عبد الله بن مهران قال :

حجَّ الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياماً ثم ضرب بالرحيل فخرج الناس وخرج بهلول المجنون فيمن خرج ، فجلس في مجلس ، وأخذ الصبيان يؤذونه ، حتى إذا أقبلت هوادج هارون فكفَّ الصبيان عن العبث به ، فلمّا جاء هارون نادى بأعلى صوته :

يا أمير المؤمنين . . .

فكشف هارون السِّجاف بيده وقال : لبَّيك بهلول . . .

فقال : يا أمير المؤمنين حدَّثنا أيمن بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامري قال : (رأيت النَّبي ﷺ يمضي على جمل وتحته رحل رَثٌّ) فلم يكن ضَرْبٌ ولا طَرْدٌ ولا إليك ولا إليك ، وتواضعكَ في سفرك هذا يا أمير المؤمنين خيرٌ لك من تكبُّرِكَ ، فبكى هارون حتى سقطت دموعه على الأرض ، وقال : زِدْنا يا بهلول يرحمك الله .

فقال بهلول :

هب أنَّك قد ملكتَ الأرض طُرًّا ... وأنَّ لك العبادَ فكان ماذا ؟
أليس غداً مصيرُكَ جَوفَ قبرٍ ... ويحثو التُرْبَ هذا ثم هذا . . . ؟!

فبكى هارون حتى بلَّ الأرض ثم قال : أحسنتَ يا بهلول هل غيره ؟ . . .

قال : نعم يا أمير المؤمنين : رجل آتاه الله مالاً وجمالاً فأنفَقَ من ماله وعَفَّ في جماله كُتِبَ في خالص ديوان الله من الأبرار .

فقال له هارون : أحسنتَ يا بهلول . . . ثم أمر له بجائزة!

فقال بهلول : أُرْدُد الجائزة إلى من أخذتَها منه فلا حاجة لي فيها .

قال : يا بهلول إن يكن عليك دَيْنٌ قضيناه ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، لا يُقْضَى دَيْنٌ بدَيْن ، ارْدُدِ الحقَّ إلى أهله ، واقضِ دَيْنَ نفسكَ يا أمير المؤمنين بنفسك .

قال : يا بهلول فنُجري عليكَ ما يكفيك ؟ . . .

فرفع بهلول رأسه إلى السماء وقال : يا أمير المؤمنين ؛ أنا وأنت من عيال الله تعالى ، فمُحالٌ أن يذكركَ وينساني . . .

فأسبل هارون السِّجافَ ومضى إلى شأنه . . .

ودونكَ قولَ القاضي الفضل ، وهي شهادةٌ نفيسةٌ للرشيد تكون خاتمة البحث :

(ما أعْلَمُ أنَّ لمَلِكٍ رِحْلَةً في طلب العلم إلاَّ الرشيد ، فإنه رحلَ لسماع الموطَّأ من مالك في المدينة) .

* * *

أُمَّةٌ في رجل

مُحدِّثُ العصر السيِّد الشريف محمد بن جعفر الكتّاني

دفين فاس رحمه الله تعالى

مدينة فاس هي العاصمة السياسية والعلمية والحضارية لبلاد المغرب ، وتُسَمَّى دمشقَ المغرب ، لجمالها وأنهارها وحُسنها وبهائها وكثرة الماء والرَّونق فيها ، وفي فاس كان قد تولَّى مشيخة الجماعة في المغرب قاطبةً (أي مشيخة الإسلام) السيد الشريف جعفر الكتّاني علاَّمة المغرب والمشرق في زمانه ، وكان يُلقَّب بـ (مالك الصغير) .

ونَسَبُ هذا الإمام الحَبْر ينتهي إلى النسب النبوي الشريف فزاد ذلك في منزلته في بلاده حتى أصبح مرجع الأمة وملاذ الناس .

ولقد رُزِقَ السيد الجليل جعفر أولاداً أصبحوا فيما بعد كلُّهم علماءٌ فحول من أجلِّهم السيدُ الشريف العلاَّمة الإمام محمد بن جعفر الكتّاني رحمه الله تعالى ورضي عنه .

تخرَّج السيد محمد بن جعفر الكتّاني بوالده في علوم الشريعة وعلوم الآلة والتصوف حتى صار إمام عصره في حياة والده ، وبعد وفاة السيد جعفر تسلَّم السيد محمد مقامَ شيخ الجماعة في المغرب ، وكان قد بدأ بإقراء الدروس في حياة والده بإذن منه ، ثم عمَّ نفعه فأفاد منه علماء عصره ، وتتلمذوا عليه ، فمن تلاميذه في المغرب الشيخ السيد محمد بن عبد الكبير الكتاني رحمه الله شيخ الطريقة الكتانية ، ومن تلاميذه في الحجاز العلاَّمة الشيخ عمر حمدان

المَحْرَسي قرأ على السيد مدَّة طويلة وأجازه السيد ، ومن تلاميذه في المدينة المنوَّرة العلاَّمة الشيخ عبد القادر الشلبي الطرابلسي قرأ على السيد وأجازه أيضاً .

كان السيد عالِماً تقيًّا ورِعاً صوَّاماً مَهيباً مُطاعاً إلى أدبٍ جَمٍّ وتواضعٍ عظيم وخدمة للفقراء والمساكين إلى كرم لا يُوصَف وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وصدع بالحق ، وكان إلى ذلك كلِّه مجتهداً كبيراً جاهد الفرنسيين والإنكليز في بلاده المغرب هو وتلاميذه حتى ضجوا منه ، وفعل ما لا تفعله الجيوش والعساكر .

ثم رحل السيد إلى دمشق الشام فاستوطنها وحجَّ ونشر العلم في كل مكان يحلّه لاسيما علم الحديث فأحياه الشيخ وبعثه من جديد بإقرائه كتبه للعمل لا للتبرك فحسب .

صنَّف السيد فأبدع وأحسن وأخرج للمكتبة الإسلامية كتباً نافعة لم يُطبَع أكثرُها[1] ، فقد ألَّف في جميع العلوم إلى طرر كثيرة على حواشي عدَّة من مكتبته ، وقد قال الشيخ محمود ياسين الدمشقي رحمه الله تعالى : (إنه كتب من إملاء السيد في درسه لمسند أحمد في الجامع الأموي ثلاث مجلَّدات) .

كل ذلك إلى منطق حلو وذاكرة عجيبة وذكاء نادر وشخصية ندر أن يخلفها الدهر .

تُوفي رحمه الله ورضي عنه في مسقط رأسه فاس عام ١٣٤٥ هـ عن ذُرِّية مباركة ؛ من أجَلِّها ولداه العالمان الجليلان السيد محمد الزمزمي دفين دمشق وشيخنا السيد محمد المكي الكتاني دفين دمشق أيضاً رحمهم الله تعالى (ورضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه) .

---

(١) من أجَلِّها (الرسالة المستطرفة لبيان كتب السنَّة المشرَّفة) ، وسلوة الأنفاس وبغية الأذكياء فيمن أُقبر من الأولياء والصالحين بفاس ، ونظم المتناثر في الحديث المتواتر وغير ذلك .